المشرق

نابولي وپمپاي

بمقالة كتبها في اثناء السفر الاب م . كولنجت اليسوعي مدرّس الطبيعيّات في مكتبنا الطبي

١

لنابولي من البحر مرأى فتّان . تترنّح له الاعطاف ويهتزّ الجنان . وكم قرأنا ذلك في أسفار المتجوّلين . وسمعناهُ من افواه المخبرين . على انّ السمع دون العيان . وشاهد النظر أدلُّ على الحقائق من رائد الآذان

كان دخولنا في جون نابولي في صباح ٢٤ ايلول من السنة الجارية فما اجتازت سفينتنا المعبر الواقع بين جزيرتي اسكيا وكپري (التي اصطفاها طيباريوس قيصر لسكناهُ وملذّاته) حتى بهرت ابصارنا مناظرُ المدينة بمحاسنها الغرّاء . وبقدر ما كنّا نقترب منها كانت تزيد مشاهدها رونقاً وحسناً فترى بيوتها الفخيمة وقصورها المتينة منتظمة على شكل الدرج ومستندة الى الهضاب البهيجة المنظر وفي خلال هذه المحاسن الرائقة قلاعٌ اثريّة ضاربة الى السُّمرة تنذر بالاهوال . ومما يزيد هذه المدينة بهاء ورونقاً امتداد مبانيها وأرصافها على مسافة بعيدة وللبلدة سوادٌ واوباشٌ تراها منتشرة على جانبيها كانها تمثّل هلالاً يدخل قرناهُ في عباب البحر . ومن هذه الارباض ما توارد ذكرهُ وشاع اسمهُ كسورّنت (Sorrente) وكستلّامار (Castellamare di Stabia) وليتره (Lettere) وبرج الرومي (Torre del Greco) وپرتيشي (Portici) وروزينا (Resina) يعلوها بركان الوسوف فاتحاً فوقها فوهتهُ النارية . واذا مِلت بطرْفك الى الشمال رأيتَ جبل پوسيليپ وما يكتنفهُ من المصايف الرومانيّة القديمة وتبادر الى فكرك انّ هناك ضريح ڤيرجيليوس الشاعر اللاتيني الشهير . ومجمل القول انّ النظر لا

يقع على هذه المناظر البهيّة حتى يحيا في القلب ذكر فطاحل الاقدمين وما سمعناهُ في شبابنا او قرأناهُ عنهم من الاعمال الخطيرة

وبينما كانت هذه الخواطر تهجس في ضمائرنا اذ بلغت السفينة ميناء نابولي والقت ثمَّ مراسيها فاحدق بنا على الفور عدد لا يُحصى من الزوارق وتسوَّر البحَّارون سطح الباخرة بجلَب عظيم . وكانت في اثناء ذلك تشنف آذاننا اصواتُ آلات الطرب اتت بها جوقةٌ من المغنين ليرتزق بها اصحابها وكانت نغماتهم الرخيمة تزيد هذه المعازف حسناً فاطربوا مسامعنا بالحانهم الوطنيَّة وقددهم الشجيَّة لم ينقطعوا عنها حتى نفعهم الركاب ببعض الدريهمات . والحقّ يقال انَّ لاهل نابولي النفوس البهجة والخواطر الطيبة وهم ارباب الفنون الجميلة لولا انَّ النقر المدقع ضاربٌ اطنابهُ في مرابعهم فلا تكاد تمرُّ في ساحة او شارع الَّا يتعقَّب تاركك قوم من الصعاليك يطلبون منك حسنةً

واذا استثنيت بعض ازقَّة نابولي الحرجة ومعابرها القذرة الشبيهة بما نعهدهُ في مدننا الشرقيَّة القديمة تجد فيها ما تردان به حواضر المدن كالساحات الفسيحة والشوارع الرحبة والاثار البديعة والقصور الشاهقة والمتنزَّهات الرائقة نخصُّ منها بالذكر النزهة التي تحاذي البحر وتنتهي الى سفح جبل پوسيليپ فانها جامعة لشتات المحاسن يزدحمُ فيها الاهلون لترويح النفس . ولنابولي ايضاً قصرها الملكيّ الشهير والمتاحف الفاخرة والكنائس الجميلة

الَّا انَّنا نضربُ الصفح عن وصف كلّ هذه الآثار لأنَّ مثلها شائع في غيرها من امهات المدن . وانَّما نجتزئ بذكر كنيستها الكاتدرائيَّة الكبرى المشيَّدة لذكر القديس يُنوار او يناير (Janvier) والقديس المذكور كان اسقفاً على بَنوَنتي (Bénévent) في عهد ديوقليسيان الملك الروماني واستشهد بعد العذابات والتنكيل فنُقل جسمهُ الطاهر بعد وفاتهِ الى نابولي ولاكرامهِ بُنيت هذه الكنيسة العظمى

وقد اسعدنا الحظّ بان نحضر عيدهُ الحافل لرسوّ سفينتنا في نابولي في ١٩ ايلول وهو اليوم الموافق لهذا العيد الجليل . ومن العجائب الغريبة التي تجري في هذا النهار معجزةٌ باهرة يتناظر لنظرها الجماهير المجمهرة من الاجانب فضلاً عن اهل المدينة يعدُّها كلُّ من شهدها كدليل لامع على صحَّة الدين الكاثوليكيّ

وذلك انَّ هامة الشهيد المذكور بعد ان قطعها المغتصبون بالسيف أُودعت في تمثال

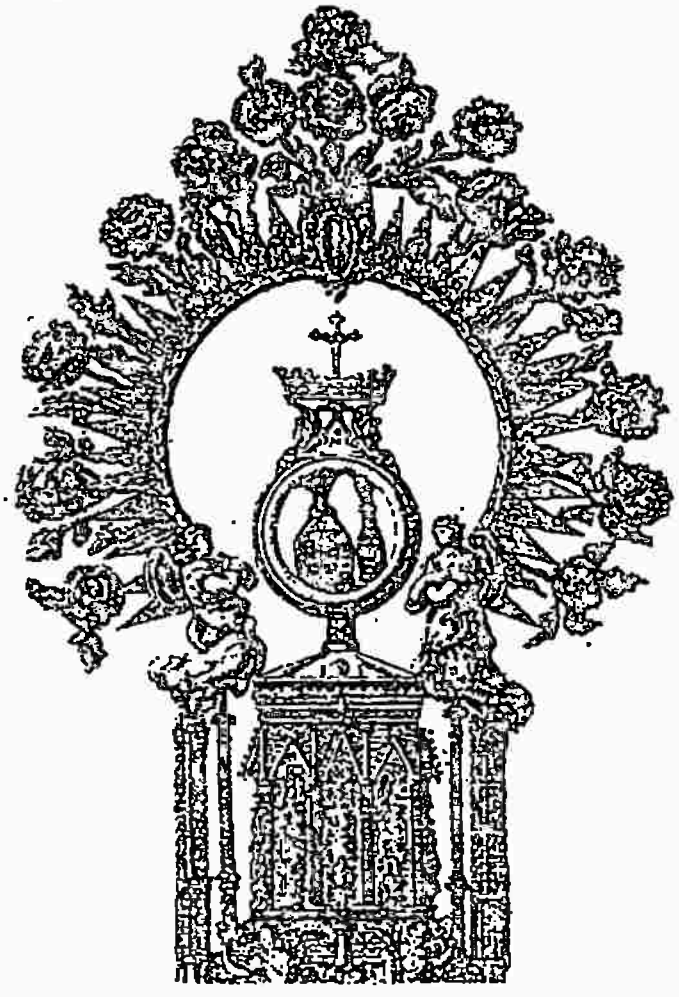

الصونة التي تُحفظ فيها دم القديس يَنوار الشهيد

بديع الشكل غالي الثمن. وكان المؤمنون المعاصرون له جمعوا في حين قطع رأسه كمية وافرة من دمه الزكي جعلوه في قنينتين وختموهما بإحكام ووضعوهما في صونة (شماع) بديعة العمل (انظر صورتها). فاذا وقع عيد القديس أُخرجت القنينتان من صونتها المقفلة باربعة اقفال (١ ثم تقربان من جمجمة القديس الشهيد وتُعرضان على

١) ولكل قفل مفتاح يُصان في محل منفرد وعند اشخاص معلومين لئلا يتمكن احد من فتح الصونة. فالمفتاح الاول عند اسقف المدينة والثاني عند حاكمها والثالث عند مجلس البلدية والرابع عند انكامن قيم الكنيسة

مرأى الشعب الذي يشرع في الصلاة فلا يمرُّ على ذلك برهـة قليلة حتى يتحوَّل الدم الجامد المودع فيهما الى دم سيَّال يترقرق كالمرائع يخال للناظر انهُ سال في تلك الساعة من عُنق الشهيد

وكان الشعب منذ غلس ذلك النهار قد بادر الى الكنيسة فضاقت به مع رحبها. فبقي هنـاك ساعات طويلة يصلّي الى الله وهو ينتظر حدوث المعجزة بفروغ الصبر. فلمَّا آنت الساعة لم يُخيِّب الله املهُ فماع الدم واخذ المؤمنون يمرُّون بازاء القنينتين ليتبرَّكوا باستلامهما. وهذه الاعجوبة تحدث مدَّة ثمانية أيام متواليـة لا يصعب على احد ان يتحقَّق صحَّتها (١. وقد تبينتُ الامر بنفسي مرَّتين ورأيتُ القنينتين بتأنٍّ فوجدتُهما مختومتين ختمًا محكمًا والدمُ فيهمـا مائع قانٍ. وترى الزوَّار يوافون زرافاتٍ مدَّة هذه الثمانية الأيام لاكرام هذه الذخيرة ويباركون الله في اوليائه القديسين

وان سألنا احد من اي زمن تقرَّرت هذه العجيبة وهل التاريخ يذكرها في الاجيال الغابرة. أجبنا انَّ الامر راهن دوَّنهُ المؤرخون منذ نحو الف سنة فانَّ كتبة القرن العاشر يذكرون ذلك وهم يروونهُ كشيء قديم

امَّا الكنيسة الحاليَّة فترتقي الى القرن الثالث عشر وهي من الأبنية الفاخرة العجيبة والفسيحة الارجاء. تزينها العواميد العديدة من حجر الصوَّان المحبَّب. وفي جانبها معابد واسعة كل منها بمثابة كنيسة كبرى. ومما يلحق بهذه الكنيسة عددٌ وافر من ذخائر القديسين واواني التقديس والامتعة الثمينة

ولاهل نابولي تعبُّد عظيم لشفيع مدينتهم القديس يَنُوار يجلُّونهُ ويكرمونهُ غاية الاكرام امَّا القديس فانهُ لا يضنُّ عليهم بنعمهِ الغزيرة وكثيرًا ما نجَّاهم من البلايا والمحن وخصوصًا من هُجوم الوسوف حين اوشك هذا البركان ان يجعل مدينتهم خرابًا يبابًا

ولا نجهل انَّ بعض الكفرة قد استخفُّوا بعبادة اهل نابولي ونسبوها الى حرارة دمهم او موقع بلدتهم. كما انَّهم سخروا من اعجوبة دم القديس يَنُوار وتقوَّلوا في شرح ذلك الاقاويل الكاذبة (٢ التي هي اغرب من الاعجوبة نفسهـا وكلُّ ذلك ليُنفوا وجود

---

١) وهي تحدث في عيدين آخرين يرد فيهما ذكر القديس ونقل ذخائره

٢) كما ورد في كتاب بعض الملحدين زعم انَّ القانيَ لا تتضمَّن دمًا بل اثيرًا كبريتيًا (éther sulfurique) مصبوغًا بحمرة ومشيعًا بمزيج من السبرماتي (sperma ceti). وهو قولٌ

المعجزات كأنهُ تعالى لا يستطيع بقدرته السامية ان يدبّر مخلوقاته كما يشاء ويجري على يد اوليائه الخوارق اذا ما دعاهُ الى عملها داعٍ اهل بجلاله عزَّ وجلَّ. فبئس الكفر وساء الكفرة الذين بلغ بهم حمقهم الى ان ينكروا ادلّة الحواسّ نفسها وشواهد ملايين من البشر على اختلاف رتبهم وجنسيّاتهم وذلك مدّة عشرة اجيال بلا انقطاع

٢

هلمَّ بنا الان نتجوّل في ظهراني نابولي ونزور بقايا مدينة شهيرة غمرتها حمم بركان الوسوف فجعلها كقبر مرصوص بقي على تلك الحال مئين من السنين. ألا وهي مدينة بُمباي التي عند حلف البركان المذكور على مسافة ٢٤ كيلو متراً من نابولي. ولهذه المدينة ذكرٌ في التاريخ نحو ستّة اجيال قبل المسيح سكنها اوّلاً الأُسك (Osques) ثم السمنيون حتى جعلها الرومان قبل خرابها بمئة وثمانين سنة مستعمرةً دعوها «كرنيليا ڤيريا بمباي» نسبةً الى رئيس الجمهوريّة الرومانيّة كرنيليوس سيلاَّ والإلهة ڤانوس اي الزهرة ثمَّ القائد بمبيوس. وكان عدد سكّانها نحو عشرين الفاً ويتبادر اليها في اوان الصيف اعيانُ الرومانيين. وكان لشيشرون الخطيب الروماني فيها مصيف ذكرهُ في رسائله

ولمَّا كان عصر بعض أيّام سنة ٧٩م في فصل الشتاء(١ واذا بسحابة غمّاء تصاعدت الى عنان السماء من فوهة البركان فانتشرت على البحر والسهول المجاورة. وقد وصف بلينيوس الصغير في رسالتين ارسلها الى تاقيت المؤرخ هذه الفاجعة التي شهدها بالعيان

ففي الرسالة الاولى ذكر موت عمهِ بلينيوس الكبير المعروف بالطبيعيّ وكان اميرًا على الاسطول الرومانيّ. الّا انهُ في ساعة الحادث المشؤوم كان في مدينة ميسان (Misène) عند اهلهِ فما شعر بانفجار البركان حتى اقلع منها لرغبتهِ في مشاهدة هذه الظواهر العجيبة الى محلّ الفاجعة فخنقهُ رماد البركان عند بلدة ستابيا (Stabia)

ووصف بلينيوس الصغير في رسالتهِ الثانية تفاصيل هذا المصاب الجلل وهرب بهِ مع امّهِ لينجوا بنفسهما قال: «وكان البحر يتلاطم بالامواج كأنهُ ينقلب ظهرًا لبطن... وانتشر في الجوّ عارض من السحاب المكفهرّ تنبعث من خلالهِ اقواس نارية

غاية في الغرابة كأنّ صاحبهُ تمكّن من تحليل مضمون التنيّنين وكأنّ الاثير الكهربيّ يسيل ويجمد من تلقاء ذاته دون ان يمسّهُ احد

١) الرجح ان ذلك حدث في اواخر تشرين الثاني. وفي رواية الكاتب بلينيوس بعض التباس

اشبه بالبروق . . . فلمّا ابتعدنا شعرنا بالرماد يهبط فوقنا . . . ثمّ التفتُّ لأرى ما الامر واذا بدخان يتهدّدنا من ورائنا كأنّهُ سيل جحاف فقلتُ لوالدتي : « هلمّي بنا نخرج من الطريق المسلوكة » . فما حدنا عنها قليلاً حتى رأينا نفسنا في ليل دامس كأنّنا في حجرة لا نافذة لها . وما كنّا نسمع في طريقنا الّا عويل النساء وصراخ الاطفال وجلبة الرجال . . . »

ودامت هذه الحال السيّئة مع انفجار الحمم المصهورة مدّة ثلاثة أيام هلك فيها اكثر من الفيّ نسمة . ولمّا صفا الجوّ وجدوا الرماد على شكل سطح سويّ حول البركان وكانت ذرّاتهُ بلغت الى بلاد بعيدة حتى مصر والشام . امّا المدن الساحلية المجاورة لهُ فكانت مسجّاةً بكفن اغبر من الرماد لا يُسمع لاهلها ركزٌ بعد هنائهم وتنعّمهم باللذّات

ثم تباعد الاحياء من هذه الامكنة المشؤومة لخوفهم من انفجار جديد يحدث فيلحقهم بالموتى . وبقي الرماد زمناً طويلاً دون ان يجسر احدٌ على الحفر والبحث حتى باد ذكر هذه المدن العامرة وصارت نسياً منسيّاً

ولمّا كانت اواخر القرن الماضي وقف بعض الاهلين صدفةً على آثار قديمة فاخذوا يحفرون حفرًا غير منتظم الى ان تولّى منذ بضع سنين الفارس فيورلي (Fiorelli) إدارة الحفر فباشر الامر على طريقة هندسيّة فاخرج معظم مدينة بمباي من قبرها واعادها الى الوجود

واوّل ما يشعر بهِ الداخل اذا ما تجاوز حمى المدينة الذي تبلغ دائرتهُ ستّة كيلومترات شواعر الذكر والهلع . فكنّا نسير في شوارع هذه البلدة حائرين وعلى جانبينا بيوتها القديمة لا صافر فيها ولا نافخ نار وهي مع ذلك سالمةٌ لولا انّ سقوفها قد هبطت لتراكم الرماد فوقها . امّا باطن هذه المساكن فهو على حالتهِ كما كان يوم نعب فوقها غراب الموت . فترى النقوش العجيبة واثاث البيت لا ينقص الدار سوى ساكنها

ولو اردنا وصف كلّ اخربة بمباي لاكفانا مجلّد ضخم لكثرة آثارها فدونك بالاجمال ما لحظناهُ مدّة زيارتنا

١ (شوارعها وساحاتها) شوارع بمباي قويمة متساوية لكنّها ضيّقة مبلّطة بحجارة بركانيّة . ولكل زقاق رصيفان على جانبيهِ للسابلة وفي وسطها ممرّ تسيل فيهِ

المياه. ومن مسافة الى أخرى دكك ليعبر المشاة من جانب الى آخر دون ان تبتلّ ارجلهم بالمياه. وقد بقي في بعض الشوارع اثر دواليب العربات في بلاط الارض

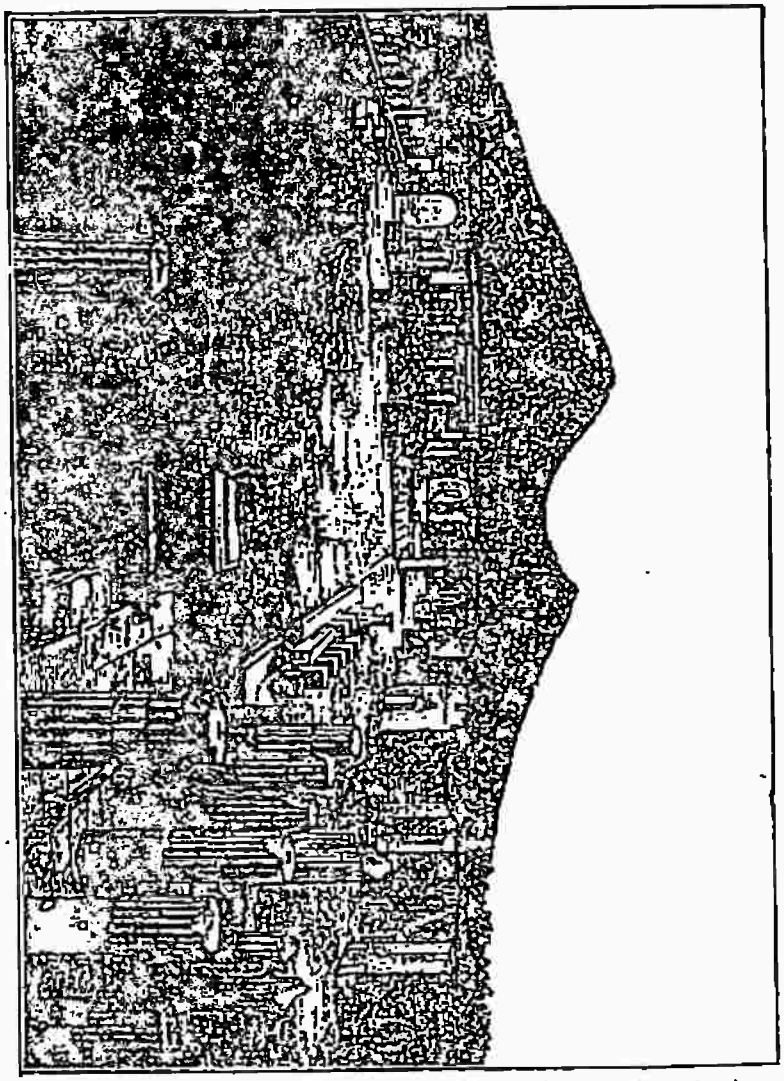

ساحة پمپاي ١٥

وپمپاي ساحتان عظيمتان الاولى الساحة الكبرى او الفورم (forum) تكسيرها ١٥٠ مترًا طولًا في ٣٠ عرضًا وفيها كان يجتمع القوم لكلّ امورهم العموميّة ولاقامة فروضهم الدينيّة. وكان على اطرافه الاربعة صفّان من العَمَد على شكل رواقٍ تحيط به الابنية الفخيمة فترى في صدر الرَّبع هيكل المشتري او الكابيتوليوم وعلى الطرفين

يميناً وشمالاً هيكلَي ابلُون وعُطارد ثمَّ مقاماً لاشغال التجَّار ومصارفهم وُجدت فيها موائد الصَّرافين مع قطع من الفضَّة والشَّبه (البروتز) . وفي وسط الساحة قواعد كان فوقها تماثيل علماء او فرسان ثمَّ منابر للخطابة وكان ايضاً على جانبي هيكل المشتري قوسان انتصاريَّان اجلالاً لنيرون وكليغولا الامبراطورين الرومانيين

اما الساحة الثانية فوقعها بقرب المرسح لها مدخلٌ جميل باعمدة عديدة من الطرز الأيوني . وشكلها مثلَّث وهي متَّسعة الباحة

٢ (هياكلها) لبمباي ثمانية هياكل اشرفها هيكل المشتري السابق ذكرهُ يُصعد اليهِ بالدرج الفخيم من جانبيهِ وفي اعلى الدرج رواقٌ عظيم لهُ اربعة صفوف من الاعمدة ولكلّ صفّ ستَّة سوارٍ من الطرز القورنثيّ . وللهيكل بابٌ كبيرٌ اذا اجتازهُ الداخل وجد ردهةً واسعة تزينها اعمدةٌ من الطرز الايوني في صحنها مذبح كان فوقهُ تماثيل للمشتري ولكيريس (Cérès) والزهرة شفيعة البلدة

واذا اعتبرتَ الهياكل الأخرى وجدت هندستها على صورة هيكل المشتري لا تختلف عنهُ الَّا قليلاً . ومما يمتاز بهِ هيكل ابلُون المجاور لساحة الفورم انَّ قسماً منهُ يرتقي الى عهد السنيين والقسم الآخر بناهُ الرومان وقد مُزجت فيهِ الطروز الهندسيَّة الثلاثة اي الدوريّ والايونيّ والقورنثيّ ولهُ سور يحيط بهِ طولهُ خمسون متراً وهو مزيَّن بتماثيل آلهة الرومان كالزهرة وديانا وابلُون الرامي وغيرهم . ومن غرائب هذا الهيكل مِزْولة (ساعةٌ شمسيَّة) نُقشت خطوطها فوق صفيحة جُعلت على عمود صغير ولها تاريخ رُقم على احد جوانبها يؤخذ منهُ ان المزولة أُقيمت باسم القائدين لوقيوس لابوديوس ومرقوس إرنيوس

وفي هيكل عطارد المبنيّ ايضاً على ساحة الفورم مذبحٌ باقٍ على هيئتهِ القديمة قد نُقشت على جوانبهِ الاربعة نقوش عجيبة تمثِّل هيئة التكهين وتقدمة الذبائح عند الرومان فترى الكاهن الذي يصبُّ الخمر وبجانبهِ الثور المقدَّم للذبيحة وآلات التقريب الى غير ذلك من المناسك الدينيَّة

ومن مميزات هيكل السَّعد كثرة نُقوشهِ وتصاويرهِ البديعة

وكان لإلهة المصريين إيزيس هيكل في بمباي تختلف هندستهُ عن بقيَّة الهياكل وقد وُجد فيهِ مذبح فوقهُ عظام الذبيحة مع رماد المحرقة

واقدم هياكل بمباي هو هيكل هرقول بُني في القرن السادس قبل المسيح وموقعهُ في الساحة المثلثة السابق ذكرها

٣ (معاهدها العمومية) موقع اكثرها قرب ساحة الفورم. منها ° البلاط الملكي) او مجلس الحكومة وهو عبارة عن بناية مربعة مستطيلة وفي داخلها عمدٌ وهي واسعة جميلة المنظر لوجهتها مدخل اثير ذو خمسة ابواب. وكان يُدخل الى هذا المجلس من جهة الفورم وفي مقدمتهِ رواقٌ حسن. ولا يزال مقام الحاكم منتصبًا في صدر هذا المعهد

وباز١. الحكمة بهوٌ جميل يُدخل منهُ الى بلاط الكاهنة أوماخيا. وهناك احواضٌ عديدة مع تمثال الكاهنة المذكورة . والمظنون انَّ القصَّارين كانوا يقصرون ثياب الرومانيين في هذا المكان وانَّهم اقاموا تمثال اوماخيا شكرًا لها على رواج امورهم

ومنها السوق العمومية في شمالي الفورم وهي بناية مسقفة ذات اثني عشر عمودًا كان الباعة يجلسون تحتها لبيع سلعهم وفي وسط هذه السوق حوضٌ

وكان لبمباي ايضًا مجلسٌ بلدي موقعهُ بازاء هيكل المشتري وكذلك معهد فسيح لانتخاب المأمورين

وكلُّ هذه الابنية كانت محدقة بالساحة الكبرى. امَّا المباني العمومية التي وُجدت بعيدًا عنها فمرسحان كبيران وملعبٌ على شكل نصف دائرة كانت تجري فيهِ ألعاب مستقبحة كمقاتلة الوحوش الضارية والمسابقة والملاكمة. وكان للرومان قومٌ يتعاطون هذه الحرف وقد وُجدت في بمباي تكتتهم مع الاسلحة التي كانوا يتحاربون بها

ومنها ايضًا حمَّامات عديدة انيقة البناء اكتُشفت في بمباي تنطق بلسان حالها عن عيشة الرومان المترفهة فانَّهم كانوا يقضون الساعات الطوال في الاستحمام ولحمَّاماتهم نظام خصوصي كما يظهر في حمَّام ستابيا (Stabia) الذي زرناهُ. فلمَّا تجاوزنا بابهُ الخارجي وجدنا ساحةً كبيرةً مزيَّنة بالعواميد كانوا يدعونها بالبترا اي الميدان يروضون فيهِ اجسامهم او يلعبون بالكريّ ولا يزال منها كُرتان حجريَّتان. وعلى احد اطراف هذا الميدان بركة كبيرة الساحة مع لواحقها . وكان يجوز للعامَّة ان يدخلوا هذا الميدان لترويح النفس والفرجة فترى المقاعد التي كانوا يجلسون عليها

ومن هذه الساحة كان يدخل المستحمُّون داخل الحمَّام وفيهِ موضعٌ خاصٌّ لنزع

الشباب ثمّ حجر مختلفة للاستحمام تدريجًا فكانوا اولًا يغتسلون بالماء البارد ثم يجتازون الى محلّ ثانٍ فيه الماء الفاتر حتى ينتهوا اخيرًا الى الماء الحارّ. وفي كلّ هذه الامكنة مُغتسلات منقورة في الحجر تجري اليها المياه بالأنابيب. وكانت المواقد والمراجل توضع فوق المغتسلات فيجري منها الهواء الحارّ وراء الجدران وتحت البلاط فيسخن الحمّام على قدر مقصود المستحمّين. وكلُّ هذه الحجر محفوظة الى اليوم لانّها كانت مقبّبة متينة البنيان وباطنها مزيّن بتصاوير ناتئة وبنقوش جميلة تمثّل الحيوانات والزهور وآلهة الرومان الخ

٤ (بيوت خاصّتها) من يدخل بيوت الخاصّة في بمباي يرَ احوال الرومان في عيشتهم الاهلية رأيَ العيان. لا يفوتهُ شيء من هندسة كلّ دار وتقسيم حُجَرها وتنظيم اثاثها وزينتها. فانّ كثيرا منها مرصّع بالفسيفساء والنقوش والكتابات اللاتينيّة فمن ذلك انّك ترى امام باب احد هذه البيوت صورة كلب مربوط وتحتهُ هذه الكتابة «إحذر الكلب». وفي غيرها تصاوير عجيبة الاشكال دقيقة العمل نضرة الالوان لا يظنُّ من يراها انّهُ قد مرَّ عليها بضع و ١٩ جيلًا. وفي اغلب هذه الدور حدائق بهيّة المنظر فيها الاحواض والتماثيل لا ينقصها الّا الزهور والمياه

امّا متاع هذه البيوت فانّهُ يجاري افخر ما يصنعهُ الصَّنَعَة في ايّامنا كالاقداح والصحون والاطباق الفضيّة المنقوشة وحليّ النساء ومصاغاتهنّ وسجلّات الكتابة والمصابيح الذهبيّة والصناديق المملوّة من الحجارة الكريمة. امّا الخزائن والاخشاب فقد تكلّست بما اصابها من المواد البركانيّة فبقيت صورها العجيبة في الرماد المتجمّد حتى أمكن الحصول على اشكالها بصُنع قوالب تمثلها كما كانت

وعلى هذه الطريقة ايضًا تمكّن المسيو فيورلي من حفظ جثث موتى بمباي بصبّ قوالب من الجصّ في الرماد المتلبّد. فترى هيئات هؤلاء الساكنين كما كانوا في ساعة النزاع تلوح على وجوههم إمارات الفزع ودلائل الوجع وعلامات اليأس والقنوط. فمنهم من يطلب الفرار وهو حامل كنوزهُ الثمينة. ومنهم من يتّقي باليدين حجارة سقفٍ المتداعي. هنا فتاةٌ لاطية في زاوية الدار. وهناك والدتها منطرحة على الحضيض كأنّها تطلب لها مفرًا في اعماق الارض. هذا يكشر عن انيابهِ وذاك فاتحٌ فاهُ يصرخ بالويلات. وقد لحظنا في جملة جثث الموتى كلبًا يحاول قطع الطوق الذي يربط عنقهُ بعتبة الباب

فيتضوّع المأ فيحنّ الزائر لوجهه كما انّهُ يذوق مع كلّ هؤلاء المتكودي الحظّ اهوال الموت

واجمل دار تراها في بمباي لم يكد يتغيّر فيها شيء من حالتها القديمة دار اخوين من عائلة رومانيّة شريفة تعرف باسم ڤتيوس (Vettius). وانّما جُدّد سقفها الذي هبط منها وزُرعت جنينتها القديمة وجُعلت فيها النباتات والزهور التي رُسمت صورتها في رواق البيت. فيخال الناظر انّها عامرةٌ بالسكّان يعطنها الى اليوم احد ذوي الثروة

ولهذه الدار دهليز مع حجرة للبواب. ثمّ باحة الدار في وسطها مُستمطر (impluvium) وعلى يمين الداخل فسحةٌ اخرى مع مُستمطَر ثانٍ يُدخل منها الى المطبخ وادوات المطبخ الى اليوم في مكانها ويلحق بالمطبخ غُرف أُخر لخدمة الدار

وبجوار مدخل الدار محلٌّ كان القدماء يدعونهُ لاراريوم (lararium) يكرّمون فيهِ آلهة البيوت المعروفين باللار او البينات (Pénates). فتراهُ في الدار التي نحن في صددها غايةً في الجمال. وقد بُني حول باحة الدار حُجَر عديدة منها للاكل ومنها للنوم وكأنّها منقوشة بنقوش رائعة. واذ تجاوزت ساحة الدار بلغت رواقاً مربعاً مستطيل الشكل كثير النقوش في وسطهِ جنينةٌ على شكلهِ تزهو فيها الزهور وتزينها الفوّارات والواح الرخام والدُّمى

ومن الرواق المذكور يدخل الداخل الى عدّة حجر والى ردهة الاستقبال الكبرى فيها من التصاوير ما يفتن العقل بحسنهِ. وهي تمثّل اطوار الحياة الرومانيّة وضروب الحرف والصنائع كالطبّ والخطابة والحدادة الخ. على انّ كثيراً من هذه التصاوير يغلب عليها المجون والخلاعة تنبئ بانحطاط الآداب بين اهلها وقد وثّب احد شعراء اللاتين معاصريه على رسم مثل هذه الصور في بيوتهم امام نسائهم واولادهم

٥ (الحوانيت) مرقعها على جانب الشوارع لكنّها في الغالب ضيقة اللهمّ الّا الخابز فانّها واسعة بقربها الرحيّ للطحن مع الافران لخبز العجين. ومن الحرف التي وجدت آثارها في بمباي الصيدليّات والمطاعم وحوانيت لباعة الزيت والخمارين ومن يدخل هذه الحوانيت يجد حتى الان آنية الباعة ودنان الخمارين. وفي ساعة حارل المصاب كان بعض الجند يعاقرون الخمرة في الخان فرموا بنوافيرهم وفرّوا هاربين. وكان كثيرون من هؤلاء الباعة مشقوا امام حوانيتهم بالفسيفساء خطّاً سلام على اله الربح بلغتهم العاميّة

" salve lucru "

ومما يستحق الذكر ايضاً في بيباي متاربها وما تحتويه من المدافن الانيقة المزينة باصناف الزين غير أننا قد اطلنا الكلام ولا يسعنا ذكر كل هذه الآثار العجيبة. لاسيما ان المدينة كلها اضحت مقبرةً لا يجد فيها الزائر الا ذكر الموتى فيعمل في قلبه هذا المنظر عملاً لا تمحيه السنون الطوال

ولما انتهينا من زيارتنا سرنا الى غربي المدينة فدخلنا كنيسة كبيرة شادها رجال اتقياء من اهل نابولي ذكراً للبتول وجعلوها كحرز لبلدتهم ودعوها « سيدة بيباي ». وقد اضحت اليوم مزاراً يحج اليه الناس من ايطاليا وفرنسة وبلاد أخرى نازحة. وما جعل هذا المكان مقصداً للزوار انَّ البتول الطاهرة قد اظهرت فيه قوات ومعجزات لا تحصى. فشاء الله ان تملك في هذه المدينة العذراء البريئة من الدنس بدلاً من الزهرة إلهة العهارة والفجور ونحن نلتمس من مراحم هذه البتول ان تحرس سكان تلك الاصقاع من حمم الوسوف ولهيبه وتنجينا واياهم بشفاعتها عليها السلام من نيران الجحيم وابالسته

ناوفيطوس مطران صيدنايا

نبذة بقلم الارشيندريت الكسيوس كاتب

قد اشتهر السيد ناوفيطوس مطران صيدنايا في اوائل الجيل الثامن عشر وكان من الروم الملكيين ينتمي الى الرهبانية الباسيلية من مجمع دير القديس يوحنا الصابغ الذي قرب الشوير في لبنان وهذا الاسقف كان في جملة الرعاة الذين ساموا في دمشق الطيب الذكر كيرلس طاناس الشهير بطريركاً انطاكياً(١ في ٢٥ ايلول سنة ١٧٢٤ وهو الذي انشأ دير النبي الياس حذاء زحلة « لبنان » وكان من الدين والآداب بمكانٍ عظيم واسع الفهم كثير المعارف

---

١) قرأنا في كتاب التواريخ المليَّة في شرح احوال البطاركيَّة الانطاكية للقس يوحنا العجيمي (نسخة مكتبتنا الشرقية ص ٣٢٥) ما ترجمتهُ : « ولما مات البطريرك اثناسيوس انتخب الدمشقيون ساروفيم طاناس (وهو كيرلس السادس) باس والي دمشق عثمان باشا ابي طوق الذي كان محباً لحالهِ وآثروهُ عليهم بطريركاً . ورسمهُ ناوفيطوس مطران صيدنايا الذي تنيَّح في رومة بمرف القداسة . والمطران باسيليوس بن فينان اسقف باناس الذي تنيح في دير الخاص بمرف القداسة . واثناسيوس مطران الفرزل . وذلك في مدينة دمشق في ٢٠ ايلول سنة ١٧٢٤ م » (الشرق)